أكاديمية إيرانية بجامعة بنسلفانيا الأمريكية تقول إن ميدان التحرير خسر محمد عبده

فيروزة كاشاني: مصر فى عهد الإخوان تسير على خطى ملالى إيران

الشرق الأوسط المعاصر يعانى غياب الأفكار والأيديولوجيات.. وشعوبه تتعامل مع الدستور باعتباره مجرد ورقة مكتوبة

لماذا خاصم شيخ الإصلاح والتجديد، محمد عبده، ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١؟!.. لا ريب أن الفاصل الزمنى بين رحيله عن عالمنا (١٩٠٥)، وبين الانتفاضة النبيلة للمصريين من أجل الحرية والكرامة والعدالة الإنسانية والاجتماعية ومن أجل اسقاط نظام الرئيس السابق حسنى مبارك وحاشيته، يقارب ١٠٦ عاماً، إلا أن أحداً لا يمكنه تجاهل ذلك الفرغ الذى خلفه غياب قامة روحية وفكرية متمردة، تماثل قيمة إمام "العروة الوثقى"، عن ميدان التحرير، وغيره من ميادين الأمل والحرية والشباب، فى مختلف ربوع مصر والعالم العربى فى ربيع الثورات.

تماماً مثلما لا يمكن للمرء غض الطرف عن عدم تصدى الأجيال الجديدة من تلامذة الإمام، أو أى من الكتاب والمفكرين والمثقفين والعلماء الحاليين، ممن يسيرون على دربه ومنهجه المنفتح، لمهمة تأصيل الثورة. ومن ثم عانت الأخيرة، وخاصة بعد نجاحها فى مصر، من افتقاد القيادة، وكذا المرجعية الملهمة لها، وباتت الآن أكثر عرضة للانتكاس، بعدما أصبحت أشبه بجائزة وهدية "مجانية"، قدمت على طبق من فضة لمجموعة من التيارات الدينية، هى بالاساس، معادية للتمدين والتطور والحداثة، وتهرول بكل قوتها صوب البدائية والردة الحضارية.

فى شبابه، شارك محمد عبده فى الثورة العرابية (١٨٨١)، فأثراها. فيما أثرت هى بشدة فى تكوينه وقناعاته. ورغم اجهاض ثورة أو "هوجة" عرابى، كما عرفت آنذاك، من قبل الخديو توفيق والإنجليز، ورغم السجن والنفى الذى تعرض لهما الإمام جراء إسهاماته الثورية، إلا أنها بقت نقطة فارقة فى حياته ومشواره الفكرى المستنير. وفى الوقت ذاته ظل هو أحد منظريها، قبل أن يصبح بعدها بسنوات، واحداً من الدعاة ورجال الدين المجددين فى حقبة العلم والمعرفة والجامعة، فى مصر، نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وعليه كان بديهياً أن يقود تلامذته وأصدقاؤه، بعد سنوات من رحيله، ثورة ١٩١٩، التى نقلت المصريين، فعلياً، إلى عصر الدولة الحديثة، عصر حكم "الدستور" وتحرر الشعوب.

القدر شاء الا يمر محمد عبده، فى ميدان التحرير، وعلى ما يبدو فإن ثورة ٢٥ يناير، مثل جميع ثورات الربيع العربى الأخيرة، كانت صاحبة حظ تعس بما يكفى. فلم تعرف ايديولوجية موحدة تحركها وترعاها، وغاب أو غيب صناعها الحقيقيون عن المشهد بصورة مريبة، بينما أحتلته قوى رجعية، لا تؤمن بالثورة من الأساس، وعلاقتها بالديمقراطية والعلمانية والمدنية والمؤسسية وتبادل السلطة، ومفهوم الدولة والوطن، أشبه بعلاقة ساكنى الأدغال والأحراش بمركبات الفضاء، والاطباق الطائرة.

ثورة ٢٥ يناير بصفة خاصة، وثورات الربيع العربى، بصفة عامة، فى خطر بلا أدنى شك. ذلك هو التصور الذى يسيطر ربما، على كل مراقب أمين للشأن المصرى والعربى والشرق أوسطى، فى الداخل والخارج، بينما تبقى كلمة السر فى ذلك، بحسب الدكتورة فيروزة كاشانى سابيت، مدير مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة بنسلفانيا، فى مدينة فيلادلفيا الأمريكية، هى "غياب الأفكار وانقراضها"، ومن ثم فإن أحتمالات نجاح الانتفاضات العربية، بحيث يتم ترسيخ مبادئها فى نظم قانونية ودستورية جديدة ومتطورة، ينطلق من إيديولوجية سياسية وفكرية واضحة، غدت على المحك، من وجهة نظرها.

كاشانى، وهى أكاديمية من جذور إيرانية، كما أنها عضو فى منتدى الكتاب الأمريكان الإيرانيين، بينما دقت فى العام ٢٠١٠ باب الأدب، بنشر أولى رواياتها "شارع الشهادة"، بدت على قناعة تامة بأن غياب الايديولوجية الفكرية، وعدم ظهور مفكرين كبار فى المنطقة العربية، يواكبون ثوراتها، على غرار أعلام الفكر العربى والإسلامى الحديث، أمثال جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا وعبد الرحمن الكواكبى وغيرهم، ممن أسهموا فى التحولات الثورية والدستورية، فى ذلك الوقت، فى عدد من الدول الشرق اوسطية (إيران ١٩٠٦، تركيا ١٩٠٨، مصر ١٩١٩)، إنما يدفع بمصر على وجه الخصوص، لأن تتحول إلى إيران جديدة، إيران الخومينى والملالى وآيات الله، خاصة أنه لا توجد حالياً، وفق رؤية كاشانى، أى ايديولوجية أقوى من الإخوان المسلمين، ولا يوجد على الساحة المصرية أى نفوذ آخر غيرهم، لا عسكر ولا ليبراليين، ولا متمسكون بمحيطهم المتوسطى على سبيل المثال، "ببساطة لا توجد أفكار فى مصر، ومن ثم سيكون كل ما غير إخوانى ضعيف"، قالتها بحسم لـ"القاهرة".

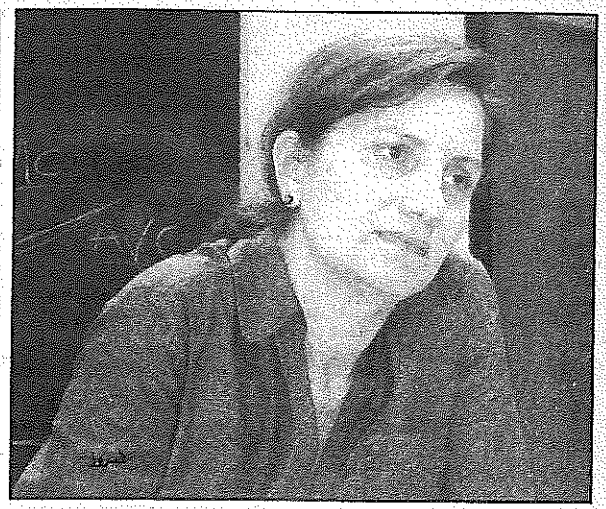

تقول كاشانى "مصر وإيران متشابهان، كما أن تاريخهما القانونى والدستورى فى القرن الماضى متشابه أيضاً. البلدان كذلك ناضلا ضد الاحتلال البريطانى، ومحاولة الهيمنة عليهما، من قبل الغرب. وفى الفترة ما بين الحربين العالميتين الاولى والثانية، كان الدستور فى البلدين ميتاً".

وتابعت "مصر وإيران متشابهان فى فكرة الزعامة.. فى مصر ظهر جمال عبد الناصر، وفى إيران كان الدكتور محمد مصدق، لكن الفارق أن الأخير لم يصل للسلطة، أو بمعنى أدق لم يتمكن من الاستمرار على رأسها (تولى رئاسة الوزراء فى فترة قصيرة جداً بين عامى ١٩٥١ و١٩٥٣، خلع خلالها الشاه محمد رضا بهلوى، وأمم النفط، قبل أن يتم خلعه، وإعادة الشاه، فى عملية أمريكية بريطانية تعرف بـ"أجاكس"، قبل أن يسجن مصدق ويوضع رهن الإقامة الجبرية حتى وفاته فى العام ١٩٦٧)، وذلك بعكس قائد الضباط الأحرار فى مصر، الذى صعد إلى سدة الحكم، وطبق إيديولوجيته. ورغم أنه (عبد الناصر) كان عضواً فى الإخوان المسلمين، إلا أنه انقلب عليهم، واضطهد الإسلاميين فى عهده، ولم يسمح لهم بممارسة السياسة".

لكن التشابه الاكبر بين الحالتين المصرية والإيرانية، يبقى دوماً فى الشعبية الكبيرة للإسلام. كاشانى تقطع بحسم "الافكار الإسلامية تسيطر على الحياة اليومية للفرد فى مصر وإيران".. "فى الولايات المتحدة الأمريكية، نجد أكثر المسلمين تديناً، ممن يحرصون على صوم رمضان مثلاً، هم المصريون".

إذا، وفى ظل التشابه الكبير بين مصر وطهران، ربما يبقى الإخوان، فى السلطة فى بلاد النيل، وعلى خطى الخومينيين فى إيران، لنحو ثلاثين عاماً مقبلة؟.. تبتسم كاشانى وتهز رأسها بالموافقة، قبل أن تعود لتقول "لدى أمل فى أن يتعلم المصريين من أخطاء إيران. وإن كنت غير متأكدة من ذلك، فالتحديات كبيرة جداً فى الشرق الأوسط المعاصر. لا توجد أفكار.. لا أحد يحتضن مشاكلنا اليومية".

كاشانى تعتقد أن الإخوان ستدين لهم السيطرة الكاملة فى مصر، لكنهم سيحتاجون لمشاركة العسكر فى ذلك، فضلاً عن احتياجهم لتوسيع قاعدة الدعم الشعبى الخاصة بهم "أعتقد أنهم تعلموا من الثورات الفاشلة"، قالتها بنبرة تخمينية نوعاً ما.

إن الهرولة المصرية بعد الثورة، وفى ظل حكم أبناء حسن البنا، نحو النموذج الإيرانى، ورغم أنها تستند لصعود مشابه وقوى للحركة الإسلامية، وللديكتاتورية، إلا أن الأمر ينطوى على بعض الاختلافات، لعل أبرزها، كما تشير كاشانى، أن الثورة الخومينية كانت دموية وعنيفة. وبعكس الوضع فى ثورة ٢٥ يناير، كانت الثورة الإيرانية طبقية بامتياز، ومثل فيها وضع المرأة والحجاب، عامل تأثير. تقول "كنت صغيرة حينما اندلعت الثورة فى إيران، ويومياً كنت استيقظ على صوت الراديو وهو يذيع أسماء من تم أعدامهم فى الصباح، بينما كان والدى يصلى بالقرب منى".

من الاختلافات المهمة أيضاً بين الثورتين فى مصر وإيران، وفق كاشانى، أن الإيديولوجية الخومينية، كانت تتصاعد وتعمل على الأرض منذ حقبة الستينات من القرن الماضى. الخومينى، المرشد الاعلى الاول للجمهورية الإسلامية، كان يكتب المقالات ويلقى المحاضرات عن حكومات الشاه، لسنوات قبل اندلاع الشرارة الأولى للثورة، وذلك بعكس الانتفاضة الخضراء للإيرانيين فى العام ٢٠٠٩، إذ كانت بلا أيديولوجية مختلفة، ورموز الانتفاضة (مير حسين موسوى، ومهدى كروبى، وغيرهما) كانوا أيضاً من مريدى وأتباع ونطاق الخومينية أيضاً.

وتأكيداً للفاتورة الباهظة جراء اختفاء محمد عبده ورفاقه، من المشهد الشرق أوسطى، تقوم كاشانى، إن "مشكلة المنطقة فى القرن العشرين، وخلال القرن الحالى أيضاً، ان معظم الأفكار الإيديولوجية الصاعدة فيها، هى أفكار رافدة، غربية فى الأساس، لم تتلاءم مع المجتمعات والشعوب"، فيما ضربت مثلاً بالنموذج الدستورى الأمريكى قائلة "الدستور الأمريكى مقدس. لكن الدستور فى الشرق الأوسط مجرد ورقة مكتوبة، لا أكثر". وتابعت "صحيح أن الشعوب العربية ناضلت من أجل حريتها ودستورها، وتحملت ويلات الاحتلال والتعذيب والتنكيل، إلا أن الثقافة السياسية، والإيديولوجية بقت دوماً غير حاضرة".

علاقة الإسلام بالعمل الديمقراطى، تظل من معوقات النهضة الدستورية فى الشرق الأوسط. تقول كاشانى "أعلام القرن التاسع عشر، كانوا يستخدمون الإسلام من أجل مناقشة مفهوم الديمقراطية، ما ينفى فرضية عدائية الإسلاميين بشكل عام للديمقراطى". فى المقابل فإن إسلاميى اليوم "لا يروجون للديمقراطية، هم يريدون السلطة لا الحرية. الإسلام يمكن تطبيقه مع الديمقراطية، كما أنه يحتملها، لكنهم لا يريدون ذلك، ويستخدمونه كدافع فقط".

نصيحة كاشانى للشعوب الثائرة، فى المنطقة العربية، أن تسرع بكتابة دساتير جديدة، ووضع نظم قانونية راسخة، "خاصة أن معظم الدساتير التى كتبت لم يكن لها قاعدة إيديولوجية جامعة، ومن ثم فإن الفرصة تبدو ذهبية الآن لتحقيق ذلك"، على حد قولها.

إن محمد عبده ورفاقه رحلوا بغير عودة، لكن أفكارهم لا تزال صالحة كأداة عملية للتغيير، بشرط أن يضاف إليها إنجاز علمى معاصر، حتى يتسع ميدان التحرير للثوار والأفكار المجددة الجامعة معاً، ومن ثم يبقى شاهداً على استمرار الثورة والإصلاح، بدلاً من أن يتحول لمجرد مساحة تذكارية تشير إلى أيام تاريخية عظيمة يبدو أننا فرطنا فى مكاسبها بلا اكتراث.

فيلادلفيا - علاء عزمى